المنهج البنيوي

عرفت الدراسات اللسانية تطورًا ملحوظًا في أواخر القرن التاسع عشر، حيث تمَّ تجاوز المناهج المعتمدة في الدراسة اللغوية إلى اعتماد المنهج الوصفي البنيوي الذي يُرجع معظم الباحثين بدايةً ظهوره إلى عهد (دو سوسير)، قبل انتشاره في كل بقاع العالم وتأثيره على مختلف العلوم والتخصصات. ولما كانت سمة التطور ملازمةً للنظريات اللسانية، فإنه كان لا بد من نقد المنهج البنيوي اللساني، والاتجاه البنيوي في دراسة اللغة عامة، أو إظهار عيوب بعض مبادئه وأركانه لتبرير ضرورة التبشير بنظرية أخرى تقوم على أنقاض التي سبقتها.

اللسانيات البنيوية:

يتفق معظم الباحثين في الدرس اللساني الحديث على أن اللسانيات البنيوية قد بدأت بشكلٍ فعلي وجلي مع صدور الطبعة الأولى من محاضرات (دو سوسير)، وإن اتفقوا كذلك في عدم وجود بنيوية واحدة، حيث تعدد البنيوية وتختلف بتعدد رجال الفكر البنيوي واختلافهم. "البنيوية بمعناها الواسع، هي طريقة بحث في الواقع، ليس في الأشياء الفردية. بل في العلاقات بينها"⁽²⁾، وهو ما يعبر عنه في التصور السوسيري بالنسق système، فالبنية structure عنده "نسق من العلاقات الباطنة، له قوانينه الخاصة المحايثة، من حيث هو نسق يتصف بالوحدة الداخلية والانتظام الذاتي، على نحو يفضي فيه أي تغير في العلاقات إلى تغير النسق نفسه، وعلى نحو ينطوي معه المجموع الكلي للعلاقات على دلالة يغدو معها النسق دالاً على معنى"⁽³⁾.

المنهج البنيوي في اللسانيات والعلوم الأخرى:

فتحت البنيوية آفاقًا كثيرة في مجالات العلوم الإنسانية المختلفة، حيث "عرف الأدب البنيوية، وطبقها، كما عرف النقدُ الأدبي التوليدية والبنيوية النقدية، كما درست الأنثروبولوجيا البنيوية، والدراسة البنيوية للأسطورة والأسلوبية النقدية، وفي علم الاجتماع نجد الدراسة البنيوية والوظيفية، وفي علم السيميولوجيا، وعلم التحقيق اللغوي نجد دراسات متنوعة جادة"⁽⁴⁾ وفي هذا الصدد يقول غلفان: "ولم تعد المنهجية البنيوية تقتصر على المجال اللساني وحده. بل تُبْنِيْنُ structurer كل شيء، إذا جاز لنا أن نستعمل هذا التعبير، تُبْنِيْنُ المجتمع واللاشعور والثقافة والأدب والفكر والسينما والمسرح والمطبخ واللباس والإعلانات الإشهارية، وكل مرافق الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية والاقتصادية"⁽⁵⁾.

لقد عرف القرن التاسع عشر انتشار المنهج الوصفي البنيوي في دراسة اللغة دراسةً علميةً في وقت معين ومحدد، ومع بداية القرن العشرين وبالضبط مع صدور محاضرات (دو سوسير) 1916، حيث بين فيها اللساني السويسري أن المنهج المقارن لم يأت بنتائج علمية؛ مما دفعه إلى الإعلان عن البذرة الأولى لنشأة المنهج الوصفي في دراسة اللغة"⁽⁷⁾.

ولعل من أهم ما يبين ظهور المنهج البنيوي في اللسانيات على يد (دو سوسير) تلك القفزة النوعية التي عرفتها الدراسات اللغوية بعد ظهور محاضراته وانتشارها بين الباحثين. لقد انطلق (دو سوسير) من البحث في طبيعة اللغة باعتبارها موضوعَ البحث العلمي، محددًا موضوع اللسانيات في دراسة اللغة في ذاتها ولذاتها، مع تحديد موقع هذا العلم باعتباره جزءًا من علم عام، كان (دو سوسير) قد بشر بميلاده وهو السيميائيات.

الأسس والمنطلقات:

يتفق اللسانيون على أن البنيوية تقوم على أساس نظريّ مؤداه "أن البنية تتألف من عناصر ومكونات جزئية، وأن أيّ تغييرٍ يطرأ على أي واحد من هذه المكونات لا بد أن يؤثر في سائر المكونات والعناصر الأخرى"⁽²²⁾. وقد أشرنا فيما سبق إلى أن (دو سوسير) لم يستعمل مصطلحَ البنية والبنيوية في محاضراته، لكنه استعمل مضمونهما. يتفق اللسانيون على أن البنيوية تقوم على أساس نظريّ مؤداه "أن البنية تتألف من عناصر ومكونات جزئية". قال شريف استيتية: "ولم يستعمل (دوسوسير) هذا المصطلحَ كما قلنا، ولكنه تحدث عن مضمونه، وأول مرة استعمل فيها هذا المصطلح، كانت في البيان الذي أعلنه المؤتمر الأول للغويين في السلاف سنة 1929، فقد ورد فيه مصطلح البنية بمضمونه المعروف حتى اليوم، ومن المشاركين في هذا المؤتمر، (ياكسون) و(تروبتسكوي)، وقد دعا المؤتمر إلى تبني منهجٍ جديدٍ في دراسة اللغة سموه (المنهج البنيوي)"⁽²³⁾

مفاهيم أساسية في المنهج البنيوي في البحث اللغوي الحديث:

ولعلّ، من أهم المفاهيم التي استخدمها (دو سوسير) مفهومَ السياق كما أشار إلى ذلك (بنفينست) في قوله: "يجمل بنا أن نشير إلى أن (دو سوسير) لم يستعمل أبداً، وبأي معنى من المعاني، كلمة (بنية)؛ إذ المفهوم الجوهرى في نظره هو النسق"⁽²⁴⁾. كما صرح (أنطوان ميهيه) -أحد تلامذة (دو سوسير) ومن أبرز المؤسسين لللسوسيولسانيات- بأن هدف أستاذه كان في البحث عن النسق، قال: "إن ما كان يبحث عن تحديده، طوال حياته كلها، هو نسق الألسنة التي كان يدرسها"⁽²⁵⁾. وبهذا يكون (دو سوسير) قد أحدثَ قطيعةً إبستمولوجية عما كان قبله من مناهج في دراسة اللغة، كما أسهم إسهامًا لا يُستهان به في بناء النظرية

اللسانية ومناهج بحثها، "وكانت المبادئ اللسانية التي اعتنقها تمثل نقطة الانطلاق في النظرية البنيوية، وقد أرسى كثيرًا من وجوه التمايز النظرية التي كان لها تأثيرها الهائل على الفكر اللساني عند كل المدارس اللسانية الحديثة"⁽²⁶⁾. لقد تميز (دو سوسير) بالبحث عن موضوع اللسانيات باعتباره علمًا حديثًا ومستقلًا.

تتلخص مبادئ بنوية سوسير حسب مصطفى الشاذلي فيما يلي:

- مبدأ استقلالية الموضوع اللساني.
- مبدأ المعالجة الوصفية للغة.
- مبدأ الملاءمة.
- مبدأ تقديم الشكل على الماهية.
- مبدأ التفريق بين المستويات المستقلة والمستويات المتضامنة فيما يخص معالجة أفعال اللغة⁽²⁷⁾.

لقد انطلق (دو سوسير) من تحديد موضوع اللسانيات في دراسة اللغة

من الفصل بين جملة من الثنائيات نوجزها في الآتي:

التمييز بين اللسان والكلام، أي: "التمييز بين النظام اللغوي *langue* والتكلم باللغة أو كتابتها الكلام

(*parole*)⁽³⁰⁾. وهذا التمييز في حقيقته تمييز لما هو اجتماعي عما هو فردي ذاتي، لا تحكمه قواعد مشتركة،

ولأن اللسان حسب (دو سوسير) خاضع لنظام عام لا يمكن تحليل مكوناته إن لم تكن داخل هذا

النظام"⁽³¹⁾، "فإن الأمر يتعلق بتحليل نسقه، وكل نسق باعتباره مكونًا من وحدات يشترك بعضها البعض الآخر، يتميز عن الأنساق الأخرى بالتنسيق الداخلي بين هذه الوحدات تنسيقًا يكون منها البنية"⁽³²⁾. فاللغة حسب (دو سوسير) متسمة بالطابع الاجتماعي، ومن ثمَّ فإنه يمكن النظرُ إليها بغضِّ النظر عن المتكلمين بها، وبهذا تكونُ معاكسةً للكلام الذي "لا يمكن أن يكون ظاهرة اجتماعية، لأنه إنتاج فردي شعوري تمامًا"⁽³³⁾.

إن اللسان انطلاقًا مما سبق جزءٌ من اللغة، ونتاج اجتماعي لها عكس الكلام الذي يتسم بالفردانية، فكان هذا التمييز بداية حقيقية لظهور التداوليات والعلوم التي تدرس اللغة، بمعزل عن السياق والمجتمع والعوامل الخارجية بصفة عامة. وقد كان (أنطوان ميه) من أهم من سلكوا هذا الطريقَ الذي أبعده (دو سوسير) في دراساته بعد الفصل بين اللغة والكلام. التمييز بين الدراسة التزامنية والدراسة التاريخية وإعطاء الأهمية للترانيمية، لاعتبار سهوة فهم النظام في حالته الثابتة أكثر من الحالة المتغيرة⁽³⁴⁾. وتهتم السانكرونية بدراسة لغة معينة في مرحلة زمنية محددة بعينها، وتسمى كذلك بالدراسة الأنية. أما الدياترونية فإنها تتبع ما تتعرض له اللغة من تغيرٍ وتحولٍ خلال فترات زمنية متعاقبة. وقد اختار (دو سوسير) الدراسة التزامنية لأنها الأكثر مناسبة في دراسة اللغة دراسة بنيوية.

تجدد الإشارةُ إلى أن الدراسة التزامنية قد أثرت على الدرس اللساني بعد (دو سوسير)، وصار كثير من اللسانيين يدافعون عن تطبيقها في الدراسات اللغوية، كما هو الشأن بالنسبة للباحث الروسي (كارتيسكي) في دفاعه عن تطبيق المنهج التزامني في وصف الأفعال الروسية، مستشهدًا بقول (دو سوسير): اللغة نظام يجب أن ينظر فيه إلى الأجزاء داخل علاقة مترابطة وتزامنية⁽³⁵⁾، و"على هذا الأساس قام التمييزُ بين نوعين

من اللسانيات: لسانيات أنية تزامنية؛ تتناول اللغة باعتبارها نسقًا في حقبة معينة، ولسانيات تعاقبية؛ تدرس متغيرات هذا النسق عبر مراحل تطوره"⁽³⁶⁾. والحق أن هذه الثنائية تجاوزت حقل اللسانيات واقتحمت مختلف العلوم والمجالات.

التمييز بين اللسانيات والسيمياثيات:

ينبغي هذا التمييز على حقيقة مفادها أن التواصل الإنساني يتمُّ "بأدلة لغوية وأخرى غير لغوية، وتهتم اللسانيات بدراسة الأدلة اللغوية، تاركةً دراسة الأدلة غير اللغوية إلى الدلائلية (السيمياثيات)"⁽³⁷⁾. وقد اعتبر سوسير -كما أشرنا سابقًا- علم اللسانيات جزءًا من هذا العلم الشامل، وإن ترك التفصيل في مباحثه وقضاياها للذين جاءوا بعده.

التمييز بين الدال والمدلول:

جاء هذا التمييز من التفريق الذي قام به (دو سوسير) بين اللسانيات والسيمياثيات، حيث تهتمُّ اللسانيات بالأدلة اللغوية. والدليل اللغوي في تصور (دو سوسير) يتكون من وجهين لا ينفصلان. فهو: "عنصر من عناصر الجهاز اللغوي، وهي مكونة من عنصرين يتصلان ببعضهما اتصالًا كاملاً. فهما كوجهي الورقة يسمى أحدهما (الدال) وهو الصورة السمعية التي يتضمنها الدليل أو العلامة، ويسمى الثاني (المدلول) وهو المتصور الذهني ويسمى قديمًا المعنى، فليست العلامة هي الدال وحده أو هي المدلول وحده وإنما هما معًا،

وبعبارة أخرى: لا يمكن الفصل بينهما"⁽³⁸⁾. بهذا، إذن، تكون اللغات علاماتٍ وكلُّ علامةٍ لا تُخْرَجُ عن كونها دالًّا

ومدلولًا، أي أصوات تتألف منها، ومعنىً ذهنيًا يكون مختزنًا في الذهن.

الطبيعة النفسية للدليل اللغوي؛

حيث إن المدلول ليس هو الشيء، وهذه الطبيعة النفسية قد عبّر عنها بالتصور، كما أن الدليل ليس هو

الصوت الفيزيائي المحض، وإنما الأثر النفسي الذي يحدثه الصوت، لذلك فإننا نستطيع أن نستظهر على

سبيل المثال قصيدةً في عقولنا دون تحريك أعضاء جهاز الصوت⁽³⁹⁾.

المنهج التاريخي

يعدّ المنهج التاريخي من أقدم المناهج اللغوية التي عرفها الأوروبيون ، إذ برز واضحًا في البحث اللغوي في

القرن التاسع عشر ، إلا أنه يمكن أن نرد جذور هذا المنهج إلى حقب قديمة منذ أن تدارس فلاسفة الإغريق

اللغة وبحثوا في أصلها ، إذ عد هذا المنهج من الدراسة نشاطًا في بداية التفكير في علم اللغة التاريخي . وقد

اختلف الباحثون في الشكل الذي كان عليه المنهج التاريخي وهيأته وزمنه ، فمنهم من يرى أنّ ظهوره في القرن

التاسع عشر اتسم بالطابع اللغوي والمقارنات اللغوية ، ومنهم من يرى أنّ البداية كانت مع البحوث المقارنة

واستمر ذلك حتى نهاية عام (1870م)، وهناك من يرى أنّ المنهج التاريخي قد ظهر على يد (جريم) في عام

(1863م)، وعندهم هو المؤسس الحقيقي لعلم اللغة التاريخي .

ونشأ هذا المنهج لغرض إعادة بناء اللغات القديمة على دراسة تطور اللغة الواحدة في مراحلها المختلفة عبر القرون، معتمداً على النصوص المدونة ، فهو يدرس اللغة عن طريق تغيراتها المختلفة وتغيرها عبر الزمان والمكان ، وهذا التغيير يحدث في كل الاتجاهات (النماذج الصوتية ، والتراكيب الصرفية ، والنحوية ، والمفردات) ، إذن فهو يهتم بتاريخ اللغة، ورصد حياتها من عصر إلى عصر ، وبيان ما يطرأ على ظواهرها اللغوية من تطور المادة المنطوقة على مر الزمن ، ومن ذلك دراسة تطور النظام الصوتي للعربية الفصحى التي تدخل في الدراسات الصوتية التاريخية ، كما أنّ تطور الأبنية الصرفية ووسائل تكوين المفردات في العربية على مدى القرون مما يدخل في الدراسات الصرفية، التاريخية ، وكذلك المعجم التاريخي ودراسة الألفاظ عبر المراحل التاريخية ، وذلك بتسجيل تاريخ حياة كل لفظ بداية من أقدم نص موجود به هذه الكلمة ، وهذا يعد أيضاً من علم اللغة التاريخي ، لذلك فإنّ التاريخ الصوتي، والصرفي، والنحوي، والمعجمي لأية لغة من اللغات يدخل في مجالات البحث اللغوي التاريخي .

خصائص المنهج :

- علم اللغة التاريخي يبحث تطور اللغة الواحدة عبر القرون ، أو بمعنى أدق التغير في اللغة الواحدة على مدى الزمن .
- المنهج التاريخي وسيلة لدراسة تأريخ اللغة ، وظواهرها ، ورصد حياتها من عصر إلى آخر ، وبيان ما طرأ عليها من تغير صوتي أو صرفي ، أو نحوي ، أو دلالي .

- يعتمد المنهج التاريخي أساسًا على المنهج الوصفي لإثبات الظاهرة اللغوية في مرحلة زمنية ما ، ووصفها على أساس الاستعمال في التعامل الثقافي، والعلمي ، والعملي في المجتمع الذي يتكلم بهذه الظاهرة اللغوية .

- المنهج التاريخي يتناول تاريخ اللغات وتطورها وحياتها في المجتمع الواحد، وبيان أثر ذلك في حضارة هذا المجتمع ، ومكانته بين المجتمعات الأخرى .

المنهج المقارن

هو جزء من المنهج التاريخي في دراسة اللغة ، إذ يتناول مجموعة لغات تنتمي إلى أسرة لغوية واحدة بالدراسة المقارنة ، ويكون هدفه التأصيل التاريخي كأن يستدل على قدم الظاهرة بالتماسها في أخواتها أو حدائتها بتفرد اللغة المعينة بها من بين أخواتها ، بحسب تاريخ تلك اللغة .

لقد ظهر المنهج المقارن بعد أن اكتشف اللغة السنسكريتية عام (1786) من العالم الانكليزي (وليم جوينز) ، فقد قسّم اللغويون منذ القرن التاسع عشر اللغات المختلفة إلى مجموعات أو أسر ، وصارت لدينا أسرة اللغات الهندية الأوربية التي تضم أكثر اللغات الموجودة في منطقة الهند وأوربا ، كما وجدت لدينا أسرة اللغات السامية التي تضم العربية والأكدية والحبشية والآرامية والعبرية ، وقد تكونت هذه المجموعات اللغوية بعد اكتشاف أوجه التشابه بين لغات كل مجموعة في الجوانب الصوتية ، والصرفية ، والنحوية ، والمعجمية ؛ مما يدل على أنها انحدرت من أصل واحد مشترك . ويقوم هذا المنهج بطبيعة موضوعه على نصوص قديمة وعلى لغات ميتة في الاستعمال أحيانًا .

سمات المنهج المقارن :

- يعتمد المنهج المقارن على النصوص القديمة ، واللغات الميئة في الاستعمال.
- الهدف من المنهج المقارن بناء الشكل الأصلي للغة الأم وذلك بمقارنة اللغات التي هي من أسرة لغوية واحدة .
- يتناول هذا المنهج المستويات كافة من أصوات، و صرف، ونحو، ودلالة ، محاولاً التوصل إلى قواعد مطردة .
- ثبت أنّ العربية هي أقرب اللغات السامية إلى اللغة الأم. وقد أفادت هذه المقارنات في كشف التاريخ السحيق للغة العربية الذي يعود إلى خمسة وأربعين قرناً من الزمان .
- وظيفة هذا المنهج أنّه يتناول اللغات المنحدرة من أسرة لغوية واحدة بالمقارنة المنهجية بحثاً عن الأصول المشتركة بين هذه اللغات .

إنّ ما يوحد بين المنهجين التاريخي والمقارن هو رغبتهما الشديدة في تحقيق هدف واحد ألا وهو إعادة

البناء الداخلي للغات للوصول إلى اللغة الأم على أسس تاريخية ومقارنة ، وهي لغة افتراضية لا وجود لها إلا في

مكتوبة

وثائق